# المقدمة

لا أود أن أنعت هذا الكتاب بأنه مهم، إذا لا يصح للمؤلف أن يعلن هذا الحكم صراحة على عمله، بل إن من واجبه أن يدع الحكم للقارىء. ومع ذلك فإننى لا أتمالك أن أخفى إحساسى بأهمية هذا الكتاب سواء بالنسبة لدارس التاريخ الإسلامى أو الحضارة الإسلامية أو لدارس الأدب الشعبى العربى.

وقد كان التاريخ الإسلامى، فى عصوره الأولى بصفة خاصة يتحرك فى شكل خفى وظاهرى. ومع تحريك التاريخ كان الأدب يتحرك على المستوى الفردى والمستوى الجمعى. ولا يحق لدارس الأدب العربى أو الحضارة العربية أن يدعى أنه استوعب أحدهما أو كليهما، أو أنه تمثل الحياة العربية فى حركتها عبر التاريخ، ما لم يدرس الأدبين على حد السواء.

ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب؛ إنه لم يهدف إلى أن يقدم للقارىء العربى دراسة عن سيرة من السير العربية التى ربما لم تكن أشهرها وأكثرها ذيوعا، ولكنه يهدف أولا وأخيرا إلى أن يبرز قيمة هذه السيرة بوصفها تعبيرا جمعيا عن إحساس الشعب العربى بحركة الحياة من حوله سياسيا واقتصاديا

واجتماعيا ودينيا. فقد كان الشعب العربى يحس تلقائياً بأن حضارته، وقت ازدهار رواية هذه السيرة، حسبما توصلنا إليه اجتهاديا، تسير فى طريق وعر، وأن هناك قوى ظاهرة وخفية تتربص بها، ومن هنا كان الانفعال الجمعى، ومن هنا كان التعبير الجمعى.

على أن أهمية هذا الكتاب تتمثل فى جانب آخر؛ فعندما حاولت أن أصل إلى المهاد التاريخى الذى نبعت منه السيرة، ذلك أن كل سيرة عربية، شأنها شأن الملحمة، ترتكز على أساس تاريخى، وجدت أننا أمام تاريخ أكثر شمولا وعمقا من ذلك الذى دونته كتب التاريخ.

أما شموليته فترجع إلى أن حركة التاريخ العربى، كما صورته السيرة، جمعت بين الحوادث التاريخية التى دونتها كتب التاريخ بوصفها وقائع رسمية، وتفاعل الشعب بهذه الأحداث، وهو ما تهمله عادة كتب التاريخ، وإذا كان التاريخ ليس مجرد حوادث تقع فى الداخل أو فى الخارج، وطريقة تعامل الحاكم مع هذه الحوادث، بل هو بالأحرى حوادث تحرك المجتمع بأسره وتنقله من وضع إلى وضع، فإن التاريخ، كما تصوره السيرة، بوصفه حركة حية نابضة للحياة، يعد أكثر شمولية من ذلك الذى تصوره كتب التاريخ فى شكله المحدد الخاص.

وأما عمق هذا التاريخ، فيرجع إلى حرص السيرة على الربط بين الجديد والقديم، وإن يكن هذا فى إطار قصصى مصنوع. فهى تحاول أن تمتد بالأحداث إلى جذور عميقة ترجع إلى الحياة العربية القديمة، لتصور ما خلفته للعصور الإسلامية اللاحقة من رواسب. وهى تحاول أن تجمع بين

القديم والجديد فى إطار قصصى محدد بحياة الأبطال، ولكنه فى الوقت نفسه يكشف عن عالم عريض وموغل فى القدم.

وبهذا تكون السيرة محققة لمفهوم الأدب بمعناه الصادق؛ إنه التعبير الملح عن حركة الحياة، بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون. وهو الكشف عن حقيقة الحياة، الخفى منها قبل الظاهر. ذلك أن هذا الشىء الخفى هو الذى يمثل جوهر الحياة وحقيقتها.

ولقد عنينا بأن نضع التعبير الشعبى البيزنطى جنبا إلى جنب مع التعبير الشعبى العربى، لا لكى نقوم بعملية المقارنة بين الأدبين فحسب، بل لأن هذا الأدب البطولى البيزنطى يعد فى الحقيقة مكملا للأدب البطولى العربى، إذ لم يحفل الأدب البطولى البيزنطى ببطولاته المحلية بقدر ما حفل بالبطولات العربية. ولم يحفل بحوادث خاصة بقدر ما حفل بحوادث عامة كانت تخص الجانبين، العربى والبيزنطى على السواء.

ونعود من حيث بدأنا لنقول أن هذا البحث مهم للقارىء العربى الذى يعيش بوعى، ماضيه وحاضره ويفكر متأملا فى مستقبله، وإذا كان الحاضر والمستقبل لا يمكن أن ينفصلا عن الماضى، فإن هذه السيرة، فى ضوء ما توصلنا إليه من كشف أدبى أو تاريخى، هى بمثابة شعاع قوى يتسلط من بعيد وفى إصرار على حاضرنا، فإذا بالحاضر يعانق الماضى، وإذا بهما معا يدفعان الإنسان العربى فى أى مكان لأن يفكر فى حاضره وأن يتأمل مستقبله.

والله ولى التوفيق.

**د. نبيلة إبراهيم**